جامعة حلوان
كلية التربية الفنية

استخدام الصلصال فى العلاج بالفن كوسيط للتعامل مع الفقدان والإنفصال فى حالة ولدين من مرحلة الكمون

The use of Clay in art Therapy as medium for Working Through Loss and Separation in the Case of Two Latency boys

بحث إعداد

أ.د / مصطفي محمد عبد العزيز
أستاذ علم النفس ، ومادة تحليل التعبير الفنى
لفنون الأطفال والبالغين (المتفرغ)
كلية التربية الفنية – جامعة حلوان

أ .د / عفاف أحمد محمد فراج
أستاذ علم نفس التربية الفنية (المتفرغ)
كلية التربية الفنية
جامعة حلوان

استخدام الصلصال فى العلاج بالفن كوسيط للتعامل مع الفقدان والانفصال في حالة ولدين في مرحلة الكمون

مقدمة :

فى هذا البحث نقوم بعرض جهود الباحثة Tessa Dalley التى ركزت فى بحثها على الانتقال المشكل "The Problematic Move" فى مرحلة الكمون بالنسبة لولدين يعيشان خبرة عدم وجود رعاية أبوية بسبب فقدانهما أو أى منهما- أى الأبوين – قبل ميلاهما . فى عمل الباحثة فى CAMHS تصف العمل الفردى مع ولدين يبلغ كل منهما ٦ سنوات من العمر واللذان تظهر عليهما أعراض جسمية تتعلق (بالفوبيا) الخوف من تناول الطعام والقذف السريع وعدم نظافة الجسم. إن أسلوب الكتابة بالضمير الثالث يقدم رؤية نظرية عامة للرسومات العلاجية التى تشرح لنا كيف كان يُستخدم الصلصال كجزء محورى فى علاج هذين الولدين. وهذا أعطى تجسيد قوى للخبرة " فكر مجهول" "an unknown Thought" من الصعب ترجمته إلى كلمات. الباحثة تفتح أمامنا نواحى فكر أخرى حول الأشقاء وقضايا الإنتماء مع بحث نظرى فى خبرة التوئمة خاصة فقدان أحد التوئمين عند الميلاد. والباحثة Tessa Dalley معالجة بالفن ذات خبرة ومعالجة نفسية للأطفال والمراهقين. تعمل فى وحدة علاجية لعلاج المراهقين وفى مشروع "الوالدين – الطفل" فى مركز Anna Freud وفى الممارسات الخاصة وأيضاً كمشرفة علاجية . نشرت عدد من الكتب والمقالات البحثية فى العلاج بالفن وهى حالياً عضوة فى لجنة التحرير فى الجريدة الدولية للعلاج بالفن انسكيب "Inscape" .

عندما بدأت الباحثة عرض بحثها ذكرت المثال التالى:

عندما حضر "بيتر Peter" أولى جلسات تقييمه الفردي، أحضر معه تمثال من الصلصال لحيوان قارض صغير يشبه الفأر صنعه في منزله. فوقف بجانب المعالجة ممسكاً بهذا التمثال بيديه واقترب منها فألقى على وجهها التمثال بصورة قلقة. فتعجبت المعالِجة من هذه الطريقة التي يقدم بها نفسه. وفي غضون عامين في دورة علاجه، أدركت المعالجة معنى طريقة الاتصال هذه.

إن محور هذا البحث هو البحث في استخدام الصلصال (الطمي التشكيلي) في العمل مع حالات الانفصال والفقدان بالنسبة لاثنين من الأولاد يبلغ كل منهما ست سنوات من العمر.

بصفة خاصة، يتم البحث في كيف أن عملية صناعة الأشياء من الصلصال مكنتهما من وضع كلمات لخبرتهما ما قبل الكلام أو خبرتهم في "التفكير المجهول" والذي يمكن من حدوث التفكير والمعنى وجعلهما يتطوران.

"Peter" و "Steven" طفلين مختلفين تماماً، كلاهما عبر عن صراعاته من خلال الانشغال بالفضلات الجسمية والتلويث والإرجاع من الفم. الاثنين جاهدا تنموياً لواقع حالة الانفصال الصعبة عن العلاقة الوطيدة مع والدتيهما واللذان عاينا بصورة واضحة من فقدان وجودهما بجانبهما. إن قضايا الانفصال والفقدان هي قضايا أكثر تعقيداً خاصة في علاقات التوائم. خاصة في حالة أحد هذين الولدين الذي مات تؤمه عند ميلاده. وهذه القضايا تحددت من خلال العمل المستمر داخل علاقة نامية مع المعالجة النفسية بالفن. وسنعطي هنا اهتمام خاص لتلك اللحظات في العملية العلاجية عندما استُخدم الصلصال ليرمز إلى الخبرة، ناتجاً عن ذلك فهم وانتقال تطوري داخل مرحلة الكمون.

العلاقة: الانفصال والفقدان Attachment, Separation and Loss : في عام ١٩٧١ يحدد Bowlby أهمية الصلة أو العلاقة في حاجة الإنسان إلى الحماية والتي تخلق الضرورة بالنسبة للطفل لأن يرتبط بعلاقة آمنة مع من يرعاه. فالارتباط مع الراعي الأول – غالباً تكون الأم – يضع الأساس النمطي لنمو كل العلاقات اللاحقة له. وعندما يصبح الطفل واعياً للإحساس بالانفصال المستقل لذاته وهويته، فإنه بذلك يبني معنى آمن وذو قيمة لذاته والذي يُمكنه من بناء العلاقات مع الآخرين. ويُعرف Bowlby العلاقة الارتباطية على أنها:- "سلوك عزيزي في داخل كل منا ككائنات بشرية ويمدنا بالحماية والأمان اللذان يجب أن نحصل عليهما من أجل البقاء. وعندما تواجه هذه العلاقة تهديد أو انهيار صريح، فإنها تؤدي في النهاية إلى اضطرابات شعورية يُعاني منها الإنسان (127 : 1971). "إن أعمال Bowlby البحثية الرئيسية أعوام ١٩٧١، ١٩٧٣، ١٩٨٠. جاءت من الملاحظات المباشرة لتفاعل الأطفال مع آبائهم، وأيضاً هذه الأعمال البحثية تأثرت بأبحاث كل من Anna Freud و Dorothy Burlingham عام ١٩٤٤ واللذان تابعا أطفال منعزلين عن آبائهم نتيجة عمليات الإجلاء في الحرب العالمية الثانية. أيضاً آخر أبحاث Robertson و Ainsworth ، لاحظا فيها الأطفال تحت العلاج في المستشفيات منعزلين عن آبائهم. أيضاً الفيلم السينمائي "ولد عمره عامين يذهب إلى المستشفى" (Robertson, 1953) يُلقي الضوء على التأثير

الشعوري لهذا الانفصال أو الانعزال للأطفال، والذي لاحقاً لعب دوراً بارزاً في إحداث تغيرات في العمل مع الأطفال داخل المستشفيات.

إن فشل العلاقة – أو فقدان الرابطة الشعورية التأثيرية بين الطفل الرضيع ومن يقوم على رعايته، أو فقدان العلاقة الأساسية، إنما يؤدي إلى قلق الانفصال. يصف Judd عام ١٩٣٥ كيف أن كل الأطفال يعيشون حتماً خبرة الفقدان (من خلال الفُطام والانفصال والإحباط). بعض من هذا الفقدان يقع في حياة الطفل الخارجية والبعض الآخر في خيالاته. فعندما يواجه الطفل الانفصال. فربما يتخيل أن أمه ماتت أو لم تعود مرة أخرى، وربما تكون مثل هذه الأحاسيس تجاوباً مع دوافعه العدوانية. عندما يواجه الطفل الفقدان، فإن عالمه الداخلي يعيش خطورة الغوص في حزن عميق خوفاً من التفكك. وتدريجياً يدرك الطفل أن الخيالات المُدمِرة لم تنجح في تدمير "الثدي" أو الأم، وأن يأسه من الدمار الواضع يتلطف بواسطة الدوافع والمحاولات المحببة للإصلاح. ومن ذلك يظهر تدريجياً الفرق الدقيق بين تقلبات العالم الداخلي للطفل والعالم الخارجي له.

يقترح Klein عام ١٩٤٠ أن جزء أساسي في عمل الحِداد والحزن هو اختبار الواقع وأن هناك ارتباط وثيق بين اختبار الواقع في الحِداد العادي وتلك العمليات المبكرة للعقل في تطور حالة الاكتئاب الطفولية. فالطفل الرضيع يعيش خبرة أحاسيس الاكتئاب في أثناء فترة فطامه. فالشيء الذي يحزن عليه يتمثل في ثدي الأم والذي يشعر الطفل الرضيع أنه افتقده بسبب خيالاته التدميرية التي يصعب التحكم فيها وكذلك دوافعه. والفشل في الحزن يحدث عندما يعجز الطفل في الطفولة المبكرة على تأسيس "شيء" جيد داخلي وفي أن يشعر بالأمان في عالمه الداخلي، فهو لم يسبق له حقاً أن تغلب على الحالة المكتئبة. فبواسطة إعادة تشكيل الآباء "الجيدون" في داخله النفسي فضلاً عن الشخص الذي فقده مؤخراً بواسطة إعادة بناء عالمه الداخلي الذي أصبح مفكك وفي خطر، ذلك أنه يتغلب على حالة حزنه ويعيد اكتساب الأمان ويحقق تناغم حقيقي وسلام.

إن وجهات نظر Klein بُنيت على أسس أبحاث Freud الأولى حول "الحِداد والميلانخوليا" Mourning and Melancholia عام ١٩١٥، فهو يصف الحِداد على أنه رد فعل شعوري نحو الفقدان في حين يصف الميلانخوليا على أنها ترتبط بالفقدان اللاشعوري لشيء محبوب: فالوقت مطلوب للتحكم في اختبار الواقع تفصيلياً. وعندما يتم إنجاز هذا

العمل، فإن الأنا سوف تنجح بذلك في شهوتها من الشيء المفقود. ويستمر قائلاً- أي Freud أن كل ذكرى مفردة وكل موقف للتوقع والذي يشير إلى علاقة الاشتهاء والنهم للشيء المفقود. فظل هذا الشيء يسقط على الأنا. وبتحديد هويته مع هذا الشيء المفقود، فإن الشخص الميلانخوليا، يأخذه داخل عالمه النفسي الداخلي، وإلى درجة خاصة جداً يُشعر نفسه أن يُقدسه". وفي هذه الطريقة أضاف Freud تصور المشاركة أو التداخل مع تلك الهوية.

حسية التجاوب الأموي Maternal Responsiveness : مع حدوث التغيرات غامضة الدلالة بين الأم والطفل الرضيع، يحس الطفل الرضيع هذا بقيمة شخصية الأم وعواطفها.

يقترح Bion عام ١٩٦٣ أن الأم تحتاج إلى احتواء حالات القلق المبكرة للطفل، وبنفس الطريقة يصف Winnicott عام ١٩٤٥ حاجة الأم إلى احتضان ومد يدها إلى طفلها غير المتكامل الشعور. فبينما يبحث الطفل الرضيع عن الاتصال من أمه بطرق فطرية غريزية بحتة، فإن الأم تكون على الطرف الثاني- طرق الاستقبال لكل عواطفه المؤلمة والهشة وتحتاج لأن تكون قوية بدرجة كافية لاحتوائها- أي احتواء كل هذه العواطف. وفي عام ٢٠٠٣ يقترح Lickermun أنه بينما تكافح الأم مع عالمها الداخلي وحالاتها الغريزية، فإنها ربما تصبح تحت سيطرة أية دلالات ظاهرة إضافية من جانب طفلها، لكن حتى مزيد من الضغوط ممكن أن تتحملها الأم في بداية عهدها مع الأمومة: فبالإضافة إلى المتطلبات الغريزية للطفل، فإن هناك إحساس منفصل بالضغط ينتج عن صراعات جينية لا محدودة زمنياً تُثار داخل الأم نتيجة ولادة هذا الطفل.

قبل ميلادهما، عانت والدة كل من Peter و Steven من خسارة أو فقدان واضح من خلال الإخفاق. بالإضافة إلى ذلك، ولد Peter ومعه توأم- أنثى- والتي تم نقلها إلى قسم الولادة القيصرية ورعاية الأطفال لكنها ماتت في تلك اللحظات. هذه الخبرة- خبرة الفقدان- بالتأكيد أثرت على العلاقة بين أم وطفل رضيع.

إن الأطفال الرُضع شديدو الحساسية للحالة النفسية والفكرية التي عليها تكون أمهاتهم فى انشغالهن بما لا يرتبط بأطفالهن بشكل مباشر. في عام ١٩٨٦ يصف Andre Green الموقف الذي أطلق عليه اسم "عقدة الأم المتوفاه" "Dead Mother Complex". مثل هذا

الموقف يظهر في علاقة التحول في العمل التحليلي مع المرضى البالغين، لكنه موقف تعود جذوره إلى خبرة طفل عايش وقوع أمه في فاجعة أو عايش موتها.

ويقترح Green أن الطفل يعيش خبرة القدرة إذا كان لا يستطيع إصلاح أمه في كربها أو فاجعتها، وكنتيجة لذلك يحدث إسقاط نفسي للشيء الأموي وهوية لا شعورية مع "الأم المتوفاة". إن التحول في الحياة النفسية في لحظة الفاجعة المفاجئة للأم عندما تصبح معزولة عن طفلها. فهذا التحول يعيشه الطفل على أنه كارثة، لأنه بدون أي علامة تنبيه يضيع الحب في ضربة واحدة. إن خيبة الأمل غير المكتملة تحمل في نوبتها خسارة المعنى (Green 1986: 165). ويقترح Green أن ذلك خطيراً بصفة خاصة إذا حدثت عقدة الأم المتوفاة عندما يكتشف الطفل وجود الضمير الثالث (الشخص البديل الأب). فيعيش الطفل خبرة العلاقة الجديدة على أنها سبب للصلة بالأم، كما أنه يعيش أيضاً خبرات فقدان المعنى لأنه يكتشف أنه من الضروري أن يعكس أو يحول عدوانيته التدميرية بسبب عدم الحصانة الأموية، ومن ذلك يتجه إلى والده، وهذا يؤدي إلى موقف مثلثي (نسبة إلى المثلث) مبكر، لأن الطفل والأم والشيء المجهول لفاجعة الأم، يكونوا حاضرين جميعهم في وقت واحد. والشيء المجهول للفاجعة والأب، يتكثفان عندئذٍ بالنسبة للطفل، فيخلقان عقد أوديب. إذاً تتواجد هذه المثلثية غير المكتملة وغير المستقرة.

التوأمة والفقدان Twinship and Loss: هذه الأفكار تكون مفيدة عندما نفكر في خبرة الطفل Peter في طفولته المبكرة. إن قضايا العلاقة التي ترتبط- بحالة الانفصال وحالة الفقدان، هي قضايا تزيد التوأمة من تعقيدها، كأطفال، فهم مع بعضهم منذ البداية والتوائم يتفاعلون مع بعضهم البعض منذ بداية الحمل. ولا يتضح متى يصبح الجنين شاعراً بتوأمة الآخر، لكن يشير Piontelli إلى أن نمط الارتباط بين التوأم مؤكدة بعد الميلاد مباشرة (Piontelli, 1992, 2002).

وهناك تناقض عميق يتواجد في علاقة توأمية بسبب حقيقة أن الإحساس أو المعنى للذات يتأسس على مفهوم كون الفرد طرف ثاني في زوج توأم. ولامتلاك معنى الهوية الفردية يعين إنكار أو خسارة معنى التوأمة. في عام ١٩٥٨ اقترحت Anna Freud أن الرابطة الدائمة بين التوأم هي رابطة على مستوى العلاقات الأبوية المبكرة وأن كسر هذه الرابطة هو

نفس كسر حالة الشهوة في الرابطة مع الأم. فاصلة أو العلاقة بالتوأم لها جـذور فـي نفـس الطبقة العميقة للشخصية، تماماً مع بداية العلاقة مع الأم (Freud 1958 : 266).

إن تأثير فقدانه لأخته التوأم أوجد خبرة طفولية مُربكة بالنسبة للطفل Peter. فوالدته عاشت معاناة حزينة جداً لفقدانها ابنتها وفي نفس الوقت الحِداد عليها ورعاية طفلها الثاني في وقت واحد. ففقدان أحد توأمين عند الميلاد يظهر قضايا معقدة لكلا الوالدين وللتوأم الباقي على قيد الحياة والذي بصفة خاصة يواجه مهمة تنموية صعبة. فهذا التوأم الباقي على قيد الحيـاة سوف لا يعيش خبرة الانفصال فقط ولكن أيضاً خبرة غياب توأمه الآخر. بالإضافة إلى خبرة حالة حزن أبويه، مما يؤثر بالتأكيد في نمو الشخصية له.

في إحدى الدراسات عام ١٩٥٢ عن التوائم المتماثلة، يشير Burlingham إلى أنـه عندما يموت أحد التوائم عند الميلاد، فإن هذا التوأم المتوفى ربما يدوم تأثيره على التوأم على قيد الحياة طوال حياته ويعمل على توجيه خيالاته ونمط علاقاته في المستقبل. أمـا الباحثـة Woodward فقد لاحظت عام ١٩٩٨ أن فقدان أحد التوأمين بالموت له تأثير واضح جداً في التوأم الباقي على قيد الحياة. فعندما يعيش الطفل الصغير خبرة موت توأمه. فإن قـدرة هـذا الطفل على المشاركة في هذه الخسارة وصنع معنى لها من خلال الفهم والتعبير بعدما يـتعلم الكلام، تكون قدرة محدودة للغاية، مما يترك تأثيراً واضحاً على قدرته على الحزن ومعايشته. فهو لا يستطيع حل هذا الصراع الناتج عن بقاؤه هو على قيد الحيـاة ومـوت توأمـه، ولا يستطيع الحزن على موت توأمه. فهذا التوأم الباقي على قيد الحياة يستطيع فقط التعامل مـع هذه القضايا بطريقة هي الأكثر بدائية ويعتمد على والديه في أن يظهر في هذا الموقف المعقد بدون الإحساس بالأذى أو ربما الإحساس بالتفكك النفسي. التوأم المفقود يكون حاضراً دائمـاً في خيال التوأم الباقي على قيد الحياة.

تصف Woodward (1998 : 11) أيضاً بعض التفسيرات المثيرة من الحديث مـع التوائم الذين عرفوا عندما كبروا أنه كان لهم توائم وماتوا عند ميلادهم. وبدون استثناء أنهـم عرفوا عنهم في شيء من المستوى الشعوري وعندما عرفوا شعروا أن كل شيء في مكانـه المناسب. وتشير الباحثة إلى أن التوأم الباقي على قيد الحياة يشعر بضعف قيمتـه. والآبـاء يحاولون التغلب على حزنهم داخل الأسرة كي لا يشعر التوأم على قيـد الحيـاة بـالانعزال والوحدة. بالإضافة إلى ذلك، التوأم الباقي على قيد الحياة يشعر بطريقةٍ ما أو بأخرى بأنه هو

المسئول عن موت توأمه، محتمل بأن ركله بقدمه داخل رحم أمه، مما ينتج عنه إحساس عميق بالذنب. ومثل هذه الخبرة في فقدان التوأم، تنكر على التوأم الباقي على قيد الحياة فرصة معايشة التناقض مع توأمه. وعندما يولد له أخ أو أخت أخرى بعد ذلك. فإنه ربما يصبح بديلاً للتوأم المتوفى.

Peter :

عندما أحضر Peter نموذج تمثال الصصال في أولى جلساته العلاجية ظهر عليه أنه تائه الخيال وحائر الفكر. فالطريقة التي يمسك بها هذا التمثال بيديه تقترح استعجاله وهرولته كما لو أنه كان ليترك المعالجة النفسية أن تعرف شيئاً ما هاماً عنه. وعلى الرغم أن المعالجة وصلت إلى فهم أن هذا الشيء عن فقدانه شيء عزيز لديه، إلا أن هذا التمثال يمثل جزء منه يعيش معه على أنه فيه حياة. وكان مهماً بالنسبة للمعالجة أن تتفاعل مع وتتفهم هذا الاتصال المؤلم من جانبه لأن أم Peter كانت مازالت في حالة حزن عميق لفقدانها طفلتها توأم Peter، وفضلت ألا تخبره بأنه كان له طفلة توأم وماتت عند ميلادها حيث شعرت أن ذلك سيزيد من محنتها ويضايقه نفسياً. وهذا ساعد على تحيره الذي يعيشه.

تم تحويل Peter إلى عيادة خدمة الصحة العقلية للأطفال والمراهقين "CAMHS" عندما كان يبلغ من العمر ست سنوات لتبوله وتبرزه اللاإرادي. وعلى الرغم أنه تدرب على دخول الحمام عندما كان يبلغ من العمر عامين ونصف وظل مدة عام لا يبتل، إلا أنه عندما كان في الحضانة وقعت له عدة حوادث. وفي بداية دخوله المدرسة أصبح اتساخه من التبول والتبرز كثيراً ثم بعد فترة قصيرة أصبح يومياً. إنه لم يتعلم الكلام حتى سن الثالثة. وعند تحويله إلى CAMHS كانت لغته التعبيرية قد تم تقييمها بالفعل بواسطة الأخصائيون النفسيون في التعليم وأخصائيو اللغة والمخاطبة والمعالجون التأهيليون.

عاش Peter في منزله مع أمه وأخين اثنين أكبر منه وأخت غير شقيقة كانت أصغر منه بعامين. كانت أمه تعاني الإخفاق وهو طفل رضيع وترك والده المنزل بعد ميلاده مباشرة وموت أخته التوأم. زوج أمه عاش معهم في المنزل لكنه كان كثير السفر لظروف عمله. كان شقيقيه يضايقانه وأخته الصغيرة دائماً ما تعايره. أمه كانت تهتم به خاصة في تعليمه لضعفه فيه. يوماً بعد يوم يزداد إدراك Peter بالفجوة بينه وبين أقرانه خاصة في مهارات الدراسة.

كان أخرق السلوك وسهل إثارته وضعيف التحكم في نفسه. وخوفه من الفشل يبدو ظاهراً في تجنبه أية واجبات تبدو صعبة عليه.

التقييم Assessment: طلبت الأم بشكل خاص علاجاً بالفن لـــ Peter لأن ذلك لا يجعله يشعر أنه يعاني شيء يسبب له حرج. Peter كان متوسط الطـــول ووجهـــه منفتحـــاً وعينان هادئتان وهادئ السلوك. ملابسه دائماً ما تكون متسخة وتظهر عليها بُقع طينية. كان ولداُ يحب الابتكار ويستمتع بالرسم والتلوين وصنع الأشياء في المنزل. عند تقييمـــه وضـــح إحساسه الداخلي بالتفكك وظهرت مشكلاته الشعورية المعقدة. ويذكر تقرير التقييم أنه منطوي وحزين وتقديره لنفسه ضعيف، يشعر بالقلق دائماً ويظهر تائهاً في عالم الأحلام، وفي أحيـــان كثيرة لا يرد على أية أسئلة كما لو أنه أطرش. وكان هناك نقاشاً حول ما إذا كانـــت ميولـــه تتجه نحو الانغلاق داخل عالمه الخاص الداخلي أم لا. وابتعاده عن الأسئلة وتجنبه التفاعلات، هل كان ذلك عدم قدرة منه على أداء عمليات الاتصال البسيطة أم لا، أم تعبير عن قلقه الدائم والعدوانية الهجومية في إحساسه المتحير عن الذات أم لا.

ومع ذلك، في أثناء تقييمه النفسي، كانت كفاءته في الاتصال غير اللفظي من خـــلال صناعة الأعمال الفنية، تمثل جانب واضح في ارتباطيته. عندما اختار استخدام الصلصـــال، غاص كليةً في تشكيله كما لو أنه ترك الحياة كلها ليبقى مع الصلصال وتاه في عالمه الخاص من الأفكار والخيالات والأحاسيس. قام بتشكيل سلحفاة ثم حيوان يشبه الفأر ووضـــعهما فـــي مكان آمن للحفاظ عليهما. في هذه المرحلة نادراً ما تحدث عما يفعل وكانت معظـــم تعليقاتـــه بلاغية غامضة كما لو أنه لا يتوقع استجابة. كانت أوقات الاستراحة في جلسة التقييم النفسي الفنية تُشوِش عليه، وكان يرى نهايتها صعبة جداً ويندهش عندما يأتي الأسبوع القادم ويجد ما صنعه مازال موجوداً.

في جلسة التقييم الثالثة له طلب من المعالجة المســـاعدة فـــي تشـــكيل تليفـــون مـــن الصلصال. وبينما كان يشاركان في هذا العمل علق Peter قائلاً أنه دائماً ما بدا عليـــه أنـــه يصنع اثنين من كل شيء، وقال: "في الأسبوع الماضي صنعت شيئين، وهذا الأســـبوع أنـــا أصنع تليفونين اثنين". وعندما اندهشت المعالجة من ذلك قالت له ولماذا هذا؟ فرد قـــائلاً: "لا أعرف"، فأنا أحياناً أصنع الأشياء ولا أفهم لماذا". كانت مشاركة المعالجة له في هذا العمـــل خلق لديه خيال التوأمة. فظهر في شعوريته خبرة إحساسه بذاته أنه "اثنين".

في الجلسة التالية صنع Peter عدد ٢٤ حيوان الجربوع صغيرة الحجم جداً من مادة البلاستيسين التشكيلية Plasticine ووضعهم في سلسلة لا يتلامسون مع بعضهم مطلقاً وأحاط بهذه السلسلة تمثالي السلحفاة والفأر الصغير. والسلسلة هذه صنعها في المنزل، ولون هذه الحيوانات- الجرابيع- باللونين الأصفر والبمبي فاصلاً بين المجموعة البمبية اللون والصفراء اللون، وهذا يبدو تعبيراً عن حاجته ليكون منعزلاً وتعبيراً عن خوفه من الاختلاط أو الحميمية مرة ثانية والتي ترتبط بخبرة التوأمة المبكرة لديه. ووضعية الجرابيع الصغيرة حول الحيوانين إنما تقترح رحم الأم أو الوعاء.

لأن Peter كان في حالة حيرة دائمة ويعيش حالة قلق غير معروفة، فإنه كان من الصعب عليه الربط بين جوانب تفكيره، وفي هذه الجلسة أنكر معرفته بأنها الجلسة الأخيرة في تقييمه النفسي. وفي هذه الجلسة صنع آلة من الصلصال وظيفتها تغذية الجرابيع بخضار البازلاء والبطاطس وعصير البرتقال. وتحدث عن أخته محتقناً قائلاً أنها كانت خبيثة (أخته التي تصغره بعامين) وكانت تحاول إتلاف الأشياء التي يصنعها، وحاولت المعالجة سؤاله للتأكيد على ما يقول لكنه لم يرد وتظاهر أنه لا يسمع كعادته. احتمال أن ذلك صدى لذكراه المبكرة الأليمة في وفاة أخته التوأم وفقدانها إلى الأبد.

العلاج: ظل Peter يحضر جلسات فردية في العلاج النفسي بالفن لمدة عامين وفي نفس الفترة استمر العمل الأسري مع والدته. في بداية علاجه، كان Peter مضطرب وقلق على ما هو محتمل أن يفعله، ولكي يتعامل مع هذا القلق كان يصنع الأشياء في منزله ويأتي بها إلى جلسة العلاج. فسرت معالجته هذا على أنه تجسيد لقلق الانعزال لديه ومحاولة منه لصنع رابطة قوية مع أمه ومنزله.

"الفعل"- الذي هو الرسم والتلوين والتشكيل النحتي الذي اختار تنفيذه في جلساته العلاجية الفنية- كان فعل فوضوي ومتحير ومتسخ في عمليته. فكان Peter مشتتاً ومنقسماً وعاجز الفكر أحياناً، ينتقل من فكرة إلى أخرى. حاول عمل نماذج نحتية كثيرة لكنها كانت تتحطم. أفكاره كانت غير متتابعة ولا مسلسلة متماسكة وغرفة العلاج بالفن تتسخ بأفعاله وأشيائها تُبعثر هنا وهناك، ويبدو أن هذا ما يمثل عالمه الداخلي.

بعد مرور عدة أسابيع على بداية علاجه، توقف تبوله وتبرزه فنتيجة لذلك توقف اتساخه، وكان من الواضح أنه بدأ بالفعل عن الشعور أنه متماسك داخلياً ويحتوي ذاته. ومع

ذلك وجد صعوبة في التحدث والتفكير عن أعماله الفنية والتجاوب مع أية أفكار من جانب المعالجة له تاركاً أحاسيسها مغلقة أمامه. أيضاً كانت المعالجة تدرك جيداً انعدام استجابته معها لكن لم تعبر لفظياً عن ذلك في هذا الوقت. إن ذلك أدى إلى تمويت أحاسيس المعالجة نفسها، فاستجابة التحول المضاد هذه ربما كان لها صدى مع خيالية Peter حول أخته التوأم المتوفية فضلاً عن علاقته بأمه التي تتجمد في تلبية احتياجاته.

في التحول الظاهر، أصبحت المعالجة تدرك أن العلاقة الداخلية التوأمية يعبر عنها كما لو أنها هي ذاتها التوأم المتوفية. لقد أصبح Peter يغوص كليةً في انعدام تنظيمه ولا ينبغي عليه أن يفكر. فيبدو أن أخته التوأم المتوفية ظلت معه كعلاقة كامنة للشيء بالنسبة له كملجأ تنموية لحمايته من خبرته المؤلمة في فقدانها. المعالجة ظلت موجودة في كل جوانب اتصاله خاصةً إحساسه العميق بالحزن. وبمرور الوقت أصبح Peter قادراً على الدخول في حوار مع معالجته وبدأ يرسم تصوراً فكرياً عن اهتمامه بأمه وشاعراً بالمسئولية عن الاضطراب الذي تعيش فيه والذي أصبح جانباً محورياً في عملية التحول. وبدأ يفهم بداية ونهاية الجلسة العلاجية وبدأ يعيش داخلياً في نمط الجلسة الأسبوعي. وببطء بدأت قدرته تزداد في التفكير في نفسه وانعكس ذلك على أفكاره وأحاسيسه. فقد بدأ يكتشف أن هناك شخص ما يهتم به موجود معه شعورياً وعاطفياً. وهكذا بدأ العلاقة الفردية له مع معالجته في أخذ معنى لها.

نحت وصفي علاجي بعد ستة أشهر: كان Peter منهمكاً في استخدام الصلصال لكنه في النهاية أكمل الشيء الذي كان يصنعه والذي قال أنه تمثال السلحفاة، وقال: "هذه السلحفاة سريعة الغضب". فاندهشت المعالجة قائلة بعد لحظات وكيف عرفت أنها كذلك؟ فلم يرد على السؤال واستمر فيما يعمل، وظهر كما لو أنه يتجاهل الأسئلة. وبعد فترة قصيرة سألته المعالجة كيف نعرف الوقت الذي فيه Peter يكون سريع الغضب؟ ومرة أخرى ظهر أنه غير قادر كليةً على الإجابة. وبعد فترة من التفكير في ذلك عاد وقال للمعالجة أنت تعرفين ما هو الوقت الذي أغضب مما يظهر من علامات على وجهي تدل على ذلك، أليس كذلك؟.

هذا الحدث أعلاه يمثل تحولاً هاماً في قدرة Peter على التعبير عن محنته لفظياً باستخدام نماذج الصلصال. وهذا النوع للاتصال له جوانب كثيرة:

أولاً : كان هناك نوع من التقدير لوجود اثنين داخل الغرفة يتحاوران ويتواصلان مع بعضهما. واندهشت المعالجة مع نفسها كم هو يحدد هويته ارتباطاً بالسلحفاة. هل يشبه نفسه بحيوان يقبع حياته كلها أسفل غطاء صدفي صلب داخله يتحصن ويخرج منه فقط عندما يشعر بالشجاعة الكافية؟ المعالجة فكرت في ذلك مع Peter وما هو الإحساس المحتمل أن تشعر به السلحفاة. وفي أثناء عملية الإحلال كان Peter يُخرِج أحاسيسه الغاضبة أيضاً. فبالنسبة له يكون الوضع أكثر أماناً للسلحفاة أن تكون سريعة الغضب أكثر منه هو، وكان حالة بدئه إظهار عدائيته مباشرة داخل غرفة العلاج. إن تفسير الأحاسيس العرضية حول نفسه ونحو معالجته خاصةً إحساسه بأن مُقتحم بواسطة أفكارها وكلماتها، بدأ معه عملية تقدير المشكلات التي يواجهها مع عدوانيته.

ثانياً : إن Peter دائماً ينكر شعوره بتغلبه على عدائيته، ويرى أنه شيء سييء أن يكون الإنسان سريع الغضب، فبدأ في استخدام الصلصال ليعبر عن عدائيته التي أصبحت الآن شعورية، وانعكس ذلك على المعالجة في أنها تشاهد أن Peter يستخدم جسمه كله، استخداماً حياً وحيوياً بدون خوف من أي شيء.

ثالثاً : بينما بدأ Peter يستكشف علاقته بأمه، كان أكثر صعوبة بالنسبة له أن يفكر في والده الغائب. في العمل الأسري، جاءت أمه إلينا لتخبرنا كيف كان مهماً أن تحكي لـ Peter عن أخته التوأم المتوفية. وبعد ذلك أصبح Peter يشعر باسترخاء أكبر وتدعم فكره كثيراً وزعم أنه كان يعرف كل ذلك، وبدأ يتحدث عن خبرته كونه داخل رحم أمه وتذكر أنه كان يركل بطن أمه وأخته التوأم وهما في رحم أمهما. وأضاف أنه يخشى إن كان سبب ضرر لهما. إنه في هذا الفكر الحالم يبذل جهود حثيثة للتغلب على الإحساس اللاشعوري بالذنب من ذلك. فأمه وأخته التوأم ترتبطان بعقله بقوة وتسيطران عليه، مثل ذلك الشيء الذي يصنعه مما جعل غرفة العلاج تشبه رحم الأم بالنسبة له. وأحست المعالجة بذلك وبما يعيشه من خبرة حية. وقد ساعدهما ذلك في فهم أسباب عدائيته المباشرة داخل غرفة العلاج وكيف أنها كانت معقدة بالنسبة له.

استخدام الصلصال The use of Clay: تذكر الباحثة إن الخواص الأصيلة لمادة الصلصال تخلق وسط مفيد وخاص بالنسبة لهؤلاء الأطفال الذين يحاولون صنع تعبير رمزي عما يمرون به من خبرات. فأصغر وضعية ممكن صنعها بواسطة قطعة من الصلصال إنما

هي تصنع علامة أو تعريفاً ما. فالحسية الملموسة تجعل الطفل يشعر أنه تحت السيطرة على الدوام وذو ثورة حسية ومضطر لأن يستمر في البحث والاستكشاف، عادةً على مستوى لا شعوري عميق. إن طبيعة الصلصال تقترح جوانب تتعلق بفضلات الجسم والأطفال الذين يتبرزون يمكنهم التعبير عن والعمل من خلال العلاقة مع برازهم. فاستخدام الصلصال يتيح فرص كثيرة للصناعة والتحطيم والتشكيل والتفتيت والقشط بدون أن يخسر- أي الصلصال- أي من خواصه. وصفة التشكيلية لهذه المادة تشجع على إظهار التعبير عن العدوانية، كما تساعد في تشكيل المشاعر وإعطاء شكل لها وهذا يساعد في النهاية في بناء الإحساس بالكفاءة والإجادة والإحساس بالذات وتقديرها.

في التاريخ البحثي في مجال العلاج بالفن نجد توثيقاً جيداً للاستخدام العلاجي لمادة الصلصال (Case and Dalley 2006). في عام ٢٠٠٢ أعطى Henley رؤية شاملة عن استخدامات الصلصال مع الأطفال أفراد وجماعات، كما قدم باحثون آخرون عديد من المساهمات في مناقشات هذا الموضوع مع جماعات خاصة من العملاء المرضى.

تكتب Case عام ٢٠٠٥ عن ثلاثة أطفال مختلفين تحت العلاج والذين عبروا رمزياً عن خبراتهم الداخلية المختلفة باستخدام الصلصال. وتصف كيف أن الجانب الثلاثي البُعد للصلصال ينتج شيء منفصل والذي يوجد تفاعلاً مثلثياً، المنظور الثالث للمثلث الأوديبي: فابتكار هذا الشيء الثالث المنفصل، مع حوار داخلي مع الذات يمكن من إظهار كثير من جوانب العمليات اللاشعورية والتي عندئذٍ ممكن وضعها في كلمات ويحدث المعنى (P.182).

في حديثها عن عملها مع الأطفال ذوي العجز الشديد، تعلن Rabiger (1990, P.26) عام ١٩٩٠ عن خواص أخرى لمادة الصلصال في نمو الذات وإدراك "الداخل" و"الخارج" في الإنسان وبدايات الإدراك الرمزي. فالخواص التي تتميز بها هذه المادة تساعد في تحديد عفوي وفوري لكثير من القضايا مثل فقدان السيطرة والخوف من التفكك.

يقترح Sagar عام ١٩٩٠ أن الصلصال يساعد هؤلاء الأطفال الذين واجهوا إساءة جنسية في أن يضعوا حدود أكثر وضوحاً للجسم. فعندما يمارس الطفل للعادة السرية بشكل متكرر أو يهتم بالأعضاء الجنسية الذكرية والأنثوية على الدوام تحت أي ظرف، فإن الأشياء المصنوعة من الصلصال ممكن أن توفر الوسائل لإعادة تداول الضرر أو الأزمة والتعامل معها. والصلصال يُستخدم غالباً بالارتباط بمواد أخرى مثل الألوان والخيوط والورق والأوعية

البلاستيكية. ممكن تشكيله ليعبر عن الخبرة الداخلية للطفل وأيضاً في تجسيد جوانب الذات التي يرغب الطفل في إظهارها – عملية لإزالة الحشو السيىء.

إن الصلصال هو الوسط الذي من خلاله استطاع Peter البحث عن الشيء المفقود والذي ظهر ببطء داخل شعوريته. ففي صناعة شيء جامد– والذي نفذه بعناية وفكر، نراه قد بدأ عملية تدريجية في ذلك. عندما عرف مزيد من المعلومات عن أخته التوأم المتوفية. استطاع أن يفكر ويفهم معنى الفقدان والذي أصبح جزءاً من كيانه. لقد كانت وحدويته محوراً في بناء علاقة مع المعالجة له والتي تمثل الفكر الحي بالنسبة له بدون أية ضغوط. فقد عثر على توأمه "الحي" في عملية التحول. وبتفكيره في تفسيرات المعالجة له بطريقة دلالية، استطاع أن يفهمها والتفكير فيها بنفسه. هذه التحولات الداخلية ساعدت على نمو Peter في مرحلة الكُمون مع اللعب الرمزي المصحوب بالقصصية. فقد اكتسب تقدماً ملموساً في فهم حالة الإحباط التي يعيشها وتوصيل أفكاره وأحاسيسه. وفي بناء قدرته على التفكير، بدأ يحد من عدوانيته ويسيطر على انفعالاته وبناء قدرة فكرية خاصة به وتعرف كيف يتحدث ويتعلم، وأمكنه الافتخار بما صنعه من أشياء من الصلصال والتي صنعها بعناية ومهارة، وزاد إحساسه بجماعة الأقران، وبدأ يلعب ألعاب مختلفة خاصة ألعاب الحرب التي فيها "الخير" و"الشر" ليتعلم حل الصراعات. فقد أصبح أكثر قدرة وتأكيدية عن ذي قبل وبدأ يقول ما يريده بدلاً من اليأس وقلة الحيلة. بدأ يصبح ولد قوي أكثر من كونه طفل صغير سريع الغضب، فقد كان الحديث عن أفكاره وأحاسيسه عاملاً رئيسياً مساعداً في إظهار ووضوح عالمه الصغير. وبصفة خاصة بدأ يطرح الأسئلة وأصبح له فضول بدلاً من قبول ما لا يفهمه على حالته ويظل في حالة حيرة.

: Steven

إن عملية الانفصال بالنسبة للتوائم هي عملية إشكالية. إن علاقات التوأمة سادت ديناميكيات هاتين الأسرتين. في حالة الطفل Steven، كانت أمه لها توأم– أخت. كانت تواجه صعوبة في الانفصال عن أمها وأختها التوأم، ومنذ دخولها مرحلة المراهقة أصيبت باضطراب مزمن في تناول الطعام، وبدورها كانت غير قادرة على انفصال Steven عنها. عند تحويله للعلاج، كان Steven يبلغ من العمر ست سنوات، وأسباب تحويله سلوكياته الوسواسية وهجوميته المذعورة وخوفه، والخوف من تناول الطعام ومن أن يتقيأ بعده. وكان يشعر بصفة خاصة بالقلق من انفصاله عن أمه وعندما يذهب إلى المردسة كان يخشى أن

يُصاب بمرض، ودائماً ما يطلب منها تطمينه أنه سوف لا يمرض وهذا بدوره أثار قلق أمه من أن تنفصل عنه. وعندما يتواجد في المدرسة، كانت هجوميته تظهر وقت الغداء ولا يتناول الطعام ولا يستخدم الحمام.

كانت أم Steven تعيش حالة حزن على فقدانها ابنتها قبل ميلاد Steven، وكان تأثير هذه الحالة لها واضحاً في علاقتها المبكرة معه. وكان Steven ولد ذو صحة جيدة لكن فُطامه عن الرضاعة حدث في وقت مبكر جداً لعدم قدرة أمه على الوفاء بمتطلباته وأخيه الذي يكبره بثلاث سنوات. فكانت خبرته فقدان ثدي أمه مع خبرته في ابتعاد أمه شعورياً عنه نظراً لفاجعتها في ابنتها، قد اختلطت مع خبرة ميلاد أخت له تصغره بثلاث سنوات. لقد حصل Steven على كل أساسيات النمو ولم تكن هناك مشكلات انفصال واجهته حتى بدأ الذهاب إلى الحضانة فى عمر عامين ونصف. أما أعراض الخوف المرضي لديه قد بدأت عندما بلغ الثالثة من العمر بعد فترة وجيزة من ميلاد أخته الصغيرة. فكان يثير الخروج مع والده وأخيه الأكبر وكان عندما يعود إلى المنزل كان يتقيأ على أمه. ومنذ ذلك الحين أصبح يشعر بقلق عميق من انفصاله عن أمه. وفي الوقت الذي فيه تم تحويله للعلاج. كان من الصعب جعله يذهب إلى المدرسة أو على الأقل إشراكه في أية أنشطة تبعده عن أمه. إن موقف Steven سوف نعرضه بتفاصيل إكلينيكية أقل لكن من المفيد التفكير في حالته ارتباطاً بحالة Peter الذي تحدثنا عنه سلفاً لأنهما يختلفان عن بعضهما واستخدما الصلصال من زوايا مختلفة في وجهات النظر في علاجهما ليرمزا ويعطيان المعنى لخبرات عميقة دفينة- هي وضع كلمات لخبرة لم تكن حتى علاجهما معروفة شعورياً. فبينما استخدم Peter الصلصال في أثناء علاجه ليبني لغة من خلالها يضع كلمات تعبر عن أحاسيسه، متحولاً من حالة انعدام تنظيم داخلي إلى إحساس أكثر تكاملاً بالذات. نجد أن Steven على الجانب الآخر استخدم الصلصال للتعبير عن حالة تشويش وتفكك دفينة في داخله. لقد كان ولد يتحدث جيداً ويرسم التصور بصورة عالية ويفهم جيداً ما يعانيه من أزمة. ومع ذلك، عند نقطة معينة في علاجه- حيث ظل على مدى عامين يستخدم صناعة الفن ليستكشف مشكلته ويفهمها- في المرحلة النهائية مر بخبرة تجمد التعبير اللفظي حيث شعر أنه يضل الكلمات وتسيطر عليه أحاسيسه ولا يجد طريقة لتفسير وفهم حالته الفكرية الغاضبة المحيرة.

التقييم Assessment: عندما قمنا بعمل تقييم فردي لـ Steven واجهنا مسألة ما إذا كان يستطيع الابتعاد عن أمه لفترة وجوده منفرداً معنا أم لا. ففي الواقع مر انفصاله الفتري عنها بسهولة. في أثناء دورة تقييمه، اندمج Steven معنا بسرعة وسرعان ما أظهر عن صفة الحوار لديه مع المعالجة، إنه ولد صغير اجتماعي. قامته قصيرة. تحدث عن إحساسه بمغص في بطنه بصورة انفعالية قلقة عندما يكون بعيداً عن أمه وكيف أن أمه هي

الوحيدة التي تذهب عنه هذا الإحساس المرضي. كما أظهر الصراع الذي يعيشه في أنه يرغب أن يكون ولد له شخصية مستقلة ويعتمد عليه بعيداً عن أمه، لكن في نفس الوقت تتملكه رغبة انتكاسية في أن يكون طفل رضيع يخشى من أن يكبر ويصبح منفصلاً عن أمه.

العلاج Treatment: في بداية علاجه. اختار Steven الأنشطة الهيكلية مثل التلوين والرسم وتشكيل النماذج والعمل من أجل غرض معين كما لو أنه قرر ما ينبغي أن يحضره معه في الجلسة العلاجية الأسبوعية. لقد اندمج بالفعل في العملية العلاجية. فحديثه المنمق وصفة المرح الرائقة لديه أخفيا ورائهما عالمه الداخلي القلق والمُشتت. فقد اتضح أنه عندما يواجه عمل غير منظم أو غير هيكلي، فإنه يبدأ قلقاً ثم يشعر بعد ذلك بالمرض. هذه الفراغية النفسية التي يشغلها المغص في بطنه تختفي عندما يجد أمه أمامه، والغريب في الأمر أنه يخشى من دوافعه العدوانية تجاه أمه في خيالاته حيث يتوهم أنه يدمرها.

كان من الصعب التفرقة بين حالة القلق لديه ومثيلتها لدى أمه. وتدريجياً تحول قلق Steven حول الانفصال إلى الحيرة في ذاته بصفة عامة، وبدأ يدرك أنه إذا شعر بالقلق على أمه فإنه لا يقلق على نفسه. في صناعة النماذج التشكيلية والتلوين، ابتكر Steven تشكيلات نحتية وأعمال تلوين تواجه أحاسيسه العميقة حول قلة الحيلة والفراغية النفسية والفقدان. وفهم بعد فترة أن ما يتوهم به من مرض إنما يرتبط بما يشعر به من قلق خاصة قلقه من انفصاله عن أمه. كما بدأ يدرك جانب في نفسه بأنه يرغب في أن يظل طفل صغير منتكس ويبقى مرتبطاً بأمه على الدوام بدون قلق أو أحاسيس صراع مطلقاً.

بينما كان Steven يتقدم في فهم صعوباته الشعورية، كانت أعراضه المرضية النفسية تتلاشى بصورة واضحة، ونادراً ما تحدث آنذاك عن إحساسه المرضي فأصبح أكثر ثباتاً من الناحية النفسية وقادراً على ترك أمه بدون التأكيد الدائم الذي تعود عليه منها بوجودها معه دوماً وبدأ يذهب إلى المدرسة بدون شكوى. وبدأ بحماسة مشاركة والده وأخيه الأكبر منه في أنشطتهما ويبقى معهما طويلاً خارج المنزل، كما أن أمه أيضاً شعرت بمقدرة أكبر على تركه يذهب معهما، ومع ثبات هذا التقدم استطعنا تحديد موعد لانتهاء فترة علاجه. بينما كنا نسير في إجراءات المرحلة الأخيرة في علاجه. شاهد Steven أخته الصغيرة وهي مريضة عندما كان هو وأمه يستقلان السيارة في طريقهما إلى عيادة علاجه النفسي بالفن، وعندما وصلا، تحدثت الأم تفصيلياً عن مرض ابنتها الصغيرة، فما كان من هذا الأمر أن أثار مرة أخرى قلق الانفصال لدى Steven وخوفه من المرض.

في سياق هذه المرحلة النهائية في العلاج، كان Steven يبذل جهد كبير في حل المشكلات المحتملة لانفصاله عن معالجته النفسية وفقدانه علاقته بها. ومن ناحيتها، كانت معالجته تدرك جيداً فُطامه المبكر من الرضاعة وكان ينتابها قلق من توقيت نهاية علاجه وما

إذا كانت مشكلاته النفسية تظهر كافية أم لا، لكنها ومع ذلك لم تحاول مد الفترة العلاجية لـــه. فى أثناء هذه المرحلة العلاجية الأخيرة، كان ممكناً التعامل مع أحاسيس Steven العميقة بأنه في حالة دفاع ومواجهة إلى حينه. فظهرت على السطح انفعالاته واحتقاره لمعالجته النفسية.

وفي عملية التحول، أصبحت هي شكلاً أموياً بالنسبة له، تأتي في الوسط بين Steven وأمه في إثارته وغضبه قبل الأوديبي. فقد كان يضع في باله أنها سوف تبعد عنه نهائياً (نهاية العلاج) وتتركه عُرضة لصراعاته الأوديبية التي لم تُحل. وفي صراعه معها فـــي مقاومتـــه حضور جلسات العلاج الأخيرة، أصبح Steven هادئاً وتائهاً ومنسحباً على مـــدار أســـابيع عديدة. ومن أجل كسر هذه الحالة له وأيضاً كمحاولة لإعادة بناء اللعـــب معـــه، قـــدمت لـــه معالجته في هدوء ورقة رسم والتي كتب عليها سلسلة من الملاحظات بينهما. والخط اليـــدوي في الصفحة يبين مثالاً للحوار الذي دار بينهما والخط اليدوى فى الشكل يبين مثـــالا للحـــوار الذى دار بينهما.

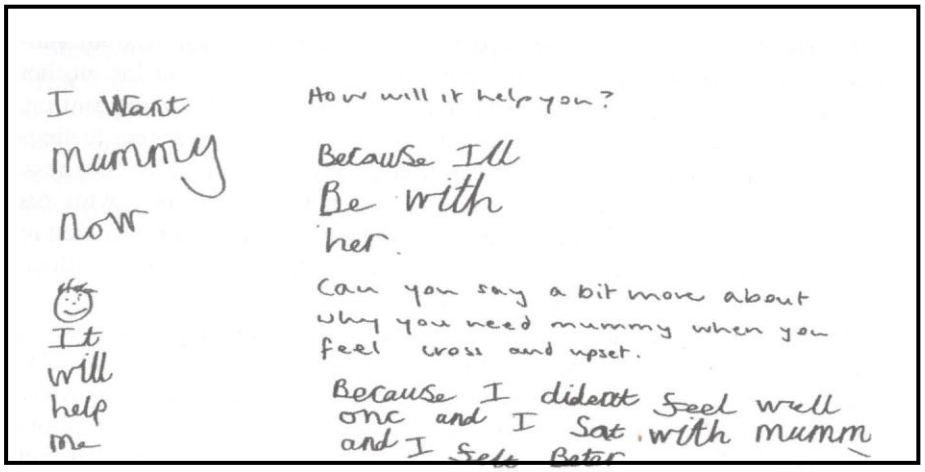

شكل (١)

مثال للحوار بين Steven والمعالجة بالفن

واستمر هذا الحوار عدة أسابيع على الورق. وظل Steven منزوياً ويجلس وظهره مواجه لمعالجته لكن تدريجياً أصبح يهتم إلى حدٍ ما، وقرأ الاثنان ما كتباه الأسبوع الســـابق. وبعد عطلة منتصف التيرم الدراسي، عاد Steven إلى جلسات العلاج فـــي حالـــة غضـــب وهدوء، بحث في غرفة العلاج بالفن فعثر على الصلصال. وهو لم يســـبق لـــه أن اســـتخدم الصلصال من قبل، وفي هدوء بدأ يصنع ما أطلق عليه "رجـــل Steven" (His Man). لـــم يستطع Steven أن يجد كلمات يعبر بها عن حيرته وانفعاله. أيضاً شعرت المعالجة بشـــيء من الجمود الفكري لكنها ظلت في حالة تحير، فشعرت أنها بعيدة وموصد أمامها الباب كليـــةً

بسبب انفعاله الساكن هذا، لكن لديها إحساس قوي بأن Steven في علاقته التوأمية مع أمه، يعيش حالة سُبات عميقة من الصعب تحديدها أو حتى تعريفها. أما الصلصال فقد قدم له الوسيلة البديلة ليعطي شكلاً لهذه الصراعات الطفولية. وشكل "الرجل" الذي نفذه قاده إلى سلسلة من أعمال الصلصال التي من خلالها سيطر على مخاوفه، من التقيؤ مثلاً. تلك العملية في فحواها تمثل وسط فعال لإحداث التغير. فقد شعر Steven أن معالجته تتقبل وتحتوي أحاسيسه النافرة بطريقة ذات دلالة مُرضية بالنسبة له، تلك الأحاسيس التي ليست مدمرة ومخيفة كما يعتقد هو. وترميز مثل هذه الخبرة بالنسبة له ساعده على صياغتها في كلمات.

والشيء المهم في ذلك أنه أدرك أن تلك الأحاسيس هي أحاسيسه الخاصة كليةً وبإظهارها أمكنه البدء في فهمها. فالصلصال قدم له وسائل عبر بها عن هذا الجانب في نفسه وعن حالته الفكرية المفككة التي أخافته والتي كان صعباً عليه التعبير عنها بالكلمات قبل ذلك. وفي نفس الوقت أمكنه الشعور بأنه رجل يواجه صعوباته بنفسه بطريقة متوافقة نفسياً. وبعد ذلك عمل في اتجاه نهاية علاجه بشكل جيد وفكر جلياً في الفقدان المفروض عليه لمعالجته النفسية وأنه ذلك أمر طبيعي فضلاً عن إمكانية امتداد علاقة صداقة معها بعد ذلك، وأيضاً فكر في الانفصال عن أمه، فقد كان يبني إحساساً مستقلاً بالذات كونه ولد صغير قوي، فقد احتاج لذلك لكي يتحمل حالات القلق التي تنتاب أمه ومشكلاتها الخاصة حول الانفصال عنه. وخوفه من الفقدان خلق لديه الحاجة للسيطرة على عالمه والعالم الخاص بأمه. وعندما يتيقن من أن معايشته الواقعية الأكيدة آجلاً أو عاجلاً للانفصال عن أمه، فإنه ممكن أن يسير في نموه بخُطى جيدة.

ملخص :

إن Peter و Steven ولدين مختلفين الرابط بينهما خبرة الفقدان. Peter فقد أخته التوأم، وكلاهما افتقد للوجود النفسي للأم وظيفياً عند الولادة. يصف Alvarez عام ١٩٩٢ كيف أن التجاوب المتوافق في علاقة الأم- الطفل الرضيع يوفر الظروف الضرورية للطفل لأن يبني الإحساس بالقدرة كإحساس متميز عن وهم القدرة الواهمة الزائفة. فقد كان غياب الوجود الشعوري الحقيقي من جانب الأم قد قدم خبرة فشل القدرة لدى كل من Peter و Steven. كلاهما اتجه إلى فضلات جسمه وبرازه وفشل في بناء علاقة مُشبعة مع الرضاعة. أعراضهما المرضية ظهرت عند نقاط انفصال فارقة. فقد كانت التوأمة عند كل منهما ذات تأثير واضح في مشكلة كل منهما.

Peter الذي تأخرت لغته، استخدم الصلصال ليساعده على صياغة خبرته في كلمات وبناء قوة الأنا والأداء الوظيفي الرمزي. فكونه توأم. خلقت خسارته موقف بحث لا ينتهي عن علاقة غير ممكن تواجدها وإحساس عميق الاضطراب بالوحدة، وما زاد من تعقيد هذه الخبرة الطفولية حالة اكتئاب ما بعد الولادة. عند ترك علاجه كان قادراً على تعريف أحاسيسه بالحزن والفقدان وبدأ Peter التحكم في عالمه وفي الفهم والتعلم.

أما Steven حاول السيطرة على عالمه من خلال البناء والنشاط. لكي يواجه فراغه النفسي كان يعيش فكر غير معروف فكان يقلق بشكل موسوس حول كونه يكون مريضاً. فقد ارتطبت صعوباته بفقدانه الوجود الشعوري من جانب أمه وانفصاله المبكر بالفُطام الذي أدى إلى ظهور أعراض الخوف المرضي عليه وإصابته بقلق الانفصال عالي الدرجة. عند مواجهة انتهاء فترة علاجه وانتهاء علاقته بشكل أموي كان يسمع له ويفهم ما يحس به، ثارت أحاسيسه التي لم يكن يملك كلمات يعبر بها عنها. كان شكل "الرجل" الذي نفذه هو عملية توافقه مع الخبرة الحياتية في طفولته المبكرة وانفصاله عن أمه وعن معالجته النفسية. مما أدى ذلك إلى تنفيذه لكثير من الأعمال التشكيلية من الصلصال والتي عملت على ترسيخ هذا التحول. لقد وجد له وجود رجولي أدى إلى تحسن الإحساس بالذات. فأشكال الصلصال أعطت المعنى والشكل إلى خبرة ما قبل اللفظ لدى كلا الولدين. Peter وجد ما فقده- توأمه. أما Steven وصل إلى فهم ما لم يكن يفهمه من قبل- وجد شعوري من جانب أمه. إن العمل الأسري مكن والدتهما التعامل مع حالة الحزن التي عاشتها كل منهما وفهم تجاوبهما مع طفليهما. وهذا ساعد على تحرير مادة داخل عقليهما إلى درجة أنه أمكن رؤية كل من Steven و Peter على أنهما ولدان منفصلان. والتعامل مع الفقدان هو الذي أوجد تحركهما بشكل إيجابي داخل فترة الكُمون.

Conclusion

Peter and Steven were very different children linked by the experience of loss, Peter lost his twin sister and both children 'lost' an available maternal function at birth. Alvarex (1992) describes how the 'synchronised responsiveness' in the mother-baby relationship provides the necessary conditions for the infant to develop a sense of 'potency' as distinct from the creation of omnipotent illusions. The absence of real emotional availability on the part of the mother presented Peter and Steven with an experience of 'failed potency'. Both turned to their own body products, faces and vormit, having failed to establish a satisfactory relationship to the breast. Their symptoms appeared at significant points of separation. The twinship in both families had +a direct impact on this problem.

Peter, whose language was delayed, used the clay to help him to put his experience into words, develop ego strength and symbolic functioning. As the surviving twin, his loss created a situation of endlessly seeking an attachment that could not be found and a sense of deep disturbing loneliness. His mother's postnatal depression compounded this confusing infantile experience. On leaving his therapy, he was able to name his feelings of sadness and loss. Peter had begun to take control of his world, to learn and understand.

Steven attempted to control his world through structure and activity. To defend against the emptiness, 'the unknown thought' he obsessively worried about being sick. His difficulties were connected to the loss of an emotionally available mother and premature separation which developed into severe separation anxiety and phobic symptoms. When facing the loss of his therapy, and a relationship with a maternal figure that did listen and understand, profound feelings were stirred up for which he had no words. The clay 'man' began a process of coming to terms with the experience in his early infancy and separation from his mother and the therapist. This led on to a series of clay works that consolidated this developmental shift. Steven found a masculine assertiveness leading to improved sense of self. The 'man' had a similar function to Peter's hamster in the concrete representation of his experience.

The clay forms gave shape and meaning to the pre-verbal experience of both boys. Peter found what he had lost-his twin. Steven came to understand

what he never really had-an emotionally available mother. Parent work enabled both mothers to work through their grief and understand their responses to their children. This helped to free a space within their minds so that Peter and Steven could be seen as separate and viable sons. Working through the loss, Peter and Steven made the necessary moves into latency.

References

1- Ainsworth, M. (1962) The effects of maternal deprivation: a review of findings and controversy in the context of research strategy, *WHO Public Health Papers*, no. 14. Geneva: WHO.

2- Ainsworth, M. (1977) Social development in the first year of life: maternal influences on infant-mother attachment, in J.M. Tanner (ed.) *Developments in Psychiatric Research*. London: Tavistock.

3- Alvarez, A. (1992) *Live Company*. London: Routledge.

4- Bion, W. (1963) *Learning from Experience*. London: Karnac.

5- Bowlby, J. (1971) *Attachment*. London: Penguin.

6- Bowlby, J. (1973) *Separation*. London: Penguin.

7- Bowlby, J. (1980) *Loss*. London: Penguin.

8- Brazelton, T.B. and Cramer, B.G. (1991) The Earliest Relationship. London: Kamac.

9- Burlingham D. (1952) *Twins: A Study of Three Pairs of Identical Twins*. London: Imago.

10- Case, C. (2005) *Imagining Animals: Art, Psychotherapy and Primitive States of Mind*. London: Routledge.

11- Case, C. and Dalley, T. (2006) *Handbook of Art Therapy,* 2nd edn. London: Routledge.

12- Frued, A. (1958) Adolescence, *Psychoanalytic Study of the Child*, 13: 255-78.

13- Frued, A. and Burlingham, D. (1944) *Infants Without Families*. New York: International Universities Press.

14- Freud, S. (1915) *Mourning and Melancholia,* SE 14. London: Hogarth.

15- Green, A. (1986) *On Private Madness*. London: Hogarth.

16- Henley, D. (2002) *Glayworks in Art Therapy*. London: Jessica Kingsley.

17- Judd, D. (1995) *Give Sorrow Words: Working with a Dying Child*. London: Whurr.

18- Klein, M. (1940) Mourning and its relation to manic depressive states, in *Love, Guilt and Reparation*. London: Hogarth.

19- Lewin, V. (2004) *The Twin in the Transference*. London: Whurr.

20- Lewis, E. and Bryan, E.M. (1988) Management of perinatal loss of a twin, *British Medical Journal*, 297: 1321-3.

21- Liekerman, M. (2003) Depression and the mother's conflict, *Journal of Child Psychotherapy*, 29(3): 301-15.

22- Lillitos, A. (1990) Control, uncontrol, order and chaos: working with children with intestinal motility problems, in C. Case and T. Dalley (eds) *Working with Children in Art Therapy*, London: Routledge.

23- Piontelli, A. (1992) *From Fetus to Child: An Observational and Psychoanalytic Study*. London: Routledge.

24- Piontelli, A. (2002) *Twins from Fetus to Child*. London: Routledge.

25- Rabiger, S. (1990) Art therapy as a container, in C. Case and T. Dalley (eds) *Working with Children in Art Therapy*. London: Routledge.

26- Sagar, C. (1990) Working with cases of child sexual abuse in C. Case and T. Dalley (eds) *Working with Children in Art Therapy*. London: Routledge.

27- Trevarthen, C. and Aitken, K. (2001) Infant subjectivity: research, theory and clinical applications, *Journal of Child Psychology and Psychiatry*, 452(1): 3048.

28- Winnicott, D.W. (1945) Primitive emotional development, in *Through Paediatrics to Psychoanalysis*. London: Hogarth, 1977.

29- Woodward, J. (1998) *The Lone Twin: Understanding Twin Bereavement and Loss*. London: Free Association Books.